

المكتبة الاشتراكية

ل. سيفال



لمحة عن
تطور المجتمع
منذ بدء التاريخ



دار دمشق
للطباعة والنشر



إهداء

الى روح المرحوم الطاهرة

محمد عابد الجابري

نقدمها اليه كنسخة الالكترونية

محمد عابد الجابري



Brahim El Harram et Zouhair Taghia

Sociologie S6 - Univ Ibn Tofail

2012-04-04

Kénitra

طبقات ((دار دمشق)) من هذا الكتاب

الطبعة الاولى ١٩٦٢

الطبعة الثانية مراجعة ومنقحة ١٩٦٩

الطبعة الثالثة ١٩٧١

الطبعة الرابعة ١٩٧٣

الطبعة الخامسة ١٩٧٤



mohamed khatab

اشتهر الاقتصادي السوفييتي سيفال في أنحاء العالم
في العقد الخامس من القرن العشرين بكتابه عن
« مبادئ الاقتصاد السياسي » الذي أوضح
فيه القوانين الاقتصادية لتطور المجتمع . وقد نقلنا
هذا الفصل من كتابه الذي درس فيه ، بدقة وبساطة
عمليتين ، المراحل المختلفة التي مرت بها
الإنسانية أثناء تطورها من أول عصور التاريخ
إلى يومنا هذا ، على ضوء مبادئ الشيوعية العلمية
التي استنبطها ماركس وإنجلز .



وقد عمدنا في هذه الطبعة الخامسة المراجعة
المنقحة ، إلى ذكر المصادر المشار إليها في حواشي
الصفحات في طبعاتها العربية أن وجدت ، وذلك
تسهيلاً للمطالع العربي الراغب في التوسّع
بالدراسة . إلا أننا لم نعتمد النصوص المستشهد
بها كما وردت في الطبعات العربية من الكتب
المشار إليها ، بل أعيدت ترجمة هذه النصوص
عن اللغة الأجنبية ، طلباً للدقة . كما أضفنا
بعض الحواشي التوضيحية ، أشير إليها بعبارة :
(المراجع) ، في نهاية كل منها .

المكتبة الاشتراكية

ل. سَيغال

لمحة عن

تطور المجتمع منذ بدء التاريخ

- المشاعة البدائية
- نظام الرق
- الاقطاعية
- الرأسمالية
- الاشتراكية



توطئة

لا يستطيع أي مجتمع أن يعيش ويتطور دون أن ينتج الأشياء الضرورية للحياة ، على كافة أنواعها . غير أن وسائل العيش لا توجد جاهزة في الطبيعة ، وعلى الإنسان أن يوجدها لنفسه بعلمه . وعندما ينتج الإنسان الأشياء الضرورية للاستعمال ، يحدث تغييرا في المادة الطبيعية ، ويحولها ويكيفها وفق حاجاته . أن الإنتاج بهذا المعنى هو فعل الإنسان في الطبيعة . ولكن الإنسان لا يعيش ولا ينتج بصفته فردا منعزلا ، بل يفعل ذلك بصفته عضوا في المجتمع . واذن فإن عملية الإنتاج تفرض وجود علاقة معينة ، لابين الإنسان والطبيعة فحسب ، بل بين الناس بعضهم مع بعض ، أيضا .

ولنأخذ على سبيل المثال مصنع نسيج . فالقطن وهو المادة الطبيعية يحول في هذا المصنع بواسطة آلات ليست بدورها إلا قوة طبيعية كيئفها وسيطر عليها الإنسان . ولكننا نلاحظ ، عدا ذلك ، أن في هذا المصنع علاقات معينة بين الناس : بين العمال الذين لا يملكون وسائل الإنتاج من جهة ، وبين الرأسمالي الذي يملك هذه الوسائل ويستغل العمال ، من جهة أخرى . ولنأخذ الآن مصنع نسيج اشتراكيا . فالقطن فيه أيضا ، يخضع لذات

طرق التحويل والصنع ، ويجري ذلك على آلات مماثلة لآلات المصنع الرأسمالي ، والعمال العاملون فيه يملكون ذات اختصاص عمال المصنع الرأسمالي ، ولكن العلاقات بين الناس في عملية الإنتاج فيه ، مختلفة تمام الاختلاف عنها هناك . فوسائل الإنتاج لم تعد قط ملكا للرأسمالي ، بل هي ملك لمجموع الطبقة العاملة ، واذن ، فليس هنا استغلال أبدا (١) . أن

(١) لا يصح الاستنتاج بأنه لا يحدث استغلال أبدا لمجرد أن المصنع صار ملكا لمجموع الطبقة العاملة ، أي لمجرد تحويل ملكية وسائل الإنتاج من ملكية خاصة إلى ملكية اجتماعية . وأن ما يقوله المؤلف في المقطع اللاحق ، حيث يشير إلى إدارة المصنع « وفق المخطط الذي تضعه الدولة البروليتارية » يساعد على إدراك هذا الأمر الهام . أما إذا كان المصنع ملكا للطبقة العاملة وكان أسلوب الإدارة فيه غير بروليتاري ، أو إذا كانت الدولة غير بروليتارية ، فإن الاستغلال واقع حتما بشكل أو بآخر .

وأن مجرد تحويل الملكية إلى ملكية عامة (ملكية الدولة أو ملكية الشعب بأسره) لا يعني قط إقامة علاقات الإنتاج الاشتراكية . أما استيلاء الطبقة العاملة على سلطة الدولة وعلى الإدارة الاقتصادية ، فليس هو الآخر النقطة الانطلاق في إقامة علاقات الإنتاج الاشتراكية . ولما كان المجتمع الجديد يخرج من صلب المجتمع القديم ، ولما كانت علاقات الإنتاج الاشتراكية والاختلاق الاشتراكية بناء يبنيه الكادحون بنشاطهم الواعي ، فمن الممكن تماما أن تتواجد سمات رأسمالية استغلالية ضمن المجتمع الذي يبنى الاشتراكية ، بل ولا مناص من ذلك . وما دامت بعض هذه السمات باقية فيه ، فلا يمكن القول أن هذا المجتمع قد أتم التحويل الاشتراكي وأن الاستغلال قد انتفى منه .

وقد أثبتت التجربة التاريخية في البلدان الاشتراكية كافة ، خطورة السمات الرأسمالية الاستغلالية التي تبقى في المجتمع وفي الإدارة الاقتصادية وفي الدولة بعد إجراء التحويل في ملكية وسائل الإنتاج . (المراجع)

مدير المصنع الاشتراكي الذي يدير المشروع الاشتراكي ليس مالكا له ، بل هو موظف لدى الدولة البروليتارية ، مكلف بإدارة الانتاج وفق مخطط تضعه الدولة البروليتارية . يختلف هنا تنظيم العمل عن تنظيمه في المصنع الرأسمالي ، ويقف العمال من العمل موقفاً يختلف تماماً عن موقفهم منه في المصنع الرأسمالي . ونرى من هذا ، ان الشكل الاجتماعي للانتاج ، وكذلك العلاقات بين الناس ، تختلف في النظام الرأسمالي اختلافاً تاماً عما هي عليه في النظام الاشتراكي . ان العلاقات بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعي تسمى علاقات الانتاج . ولقد تغيرت علاقات الانتاج خلال التطور التاريخي للمجتمع الانساني ، كما تغيرت الاشكال الاجتماعية للانتاج .

لقد كانت هذه الاشكال الاجتماعية هي : المشاعية البدائية ، نظام الرق ، الاقطاعية ، الرأسمالية . واليوم يجري في الاتحاد السوفياتي الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية فالشيوعية ، انتقالات دشت عهده ثورة تشرين (اكتوبر) ١٩١٧ ، وتم فيه انتصار الشكل الاشتراكي للانتاج .

١ - المشاعية البدائية

لقد وجد هذا الشكل الاجتماعي للانتاج ، خلال آلاف عديدة من السنين ، لدى جميع الشعوب في اوغل عهود تطور

المجتمع البشري في التاخر ، ومن تلك الحقبة بدأ تطور المجتمع . كان الناس يعيشون اذ ذاك في حالة التوحش ، يقتاتون بما يجدونه في الطبيعة من نباتات صالحة مباشرة للاستهلاك ، كالخضار والفواكه البرية والجوز . ثم جاء اكتشاف النار ، فكان كبير الاثر جداً ، اذ سمح بايجاد مصادر جديدة للغذاء ، فصار الناس يتغذون بالسماك والسرطانات وبعض الحيوانات المائية الاخرى .

كانت العصا ، والحجارة غير المنحوتة ، اولى الادوات التي استعملها البشر ، ثم جاء اختراع الرمح الحجري المسنون الرفيع ، ومن بعده السهام الحجرية ، فهيا للناس نتاجاً غذائياً جديداً هو لحم الحيوانات ، فصار القنص ، الى جانب البحث عن الاغذية النباتية وصيد الاسماك ، احدى وسائل الحياة . وقد خطا الانسان بعد ذلك خطوة كبيرة الى الامام ، حين استعمل الادوات المصنوعة من الحجر المنحوت ، وهي التي سمحت بمعالجة الخشب كي تبني منه المساكن .

ومهما يكن من عظمة كل هذا التطور الذي قاد الانسان خلال آلاف السنين من الحياة شبه الحيوانية ، الى حياة الانسان الذي يعرف كيف يصنع قاساً من الحجر ، وكيف يبني مسكناً ، فان الناس بقوا مع ذلك ضعافاً الى اقصى حد في الكفاح ضد قوى الطبيعة . وكان هذا الضعف يبدو على الاخص في عدم استقرار مصادر الغذاء وعدم دوامها . لقد كان الناس تحت رحمة الصدق ،

غير واثقين من انهم سيجدون دائما صيدا ومنتجات نباتية .
ولم يكن في امكانهم ان يحلموا بادخار بعض القوت ، في وقت يضطرونهم
ان يجدوا يوما فيوما ما يتغذون به ، دون ان يستشعروا بأية
طمأنينة على غدهم .

وكان البشر ضمن هذه الظروف مبشرين بالضرورة : فالغذاء
الذي كان يمكن بعد جهد ان يستخرج من ارض ما ، لم يكن يكفي
للقيام بأود كثافة اكبر من السكان .

وكان البشر يعيشون اذ ذاك مجتمعين في قبائل مؤلفة
من « بطون » متعددة . وكانت هذه « البطون » التي تضم مئات
من الناس ، تشمل عائلات كبيرة تجمعها صلات القرى . اما
التملك الخاص لادوات الانتاج فلم يكن موجودا ، وكان اقتصاد
« البطن » يدار بصورة مشتركة ، تعاونية : أي انهم كانوا يقومون
بصورة مشتركة بالقنص والصيد ، وبتهيئة الغذاء واستهلاكه .
وكانت المساكن ذاتها مشتركة . ويذكر انجلز في كتابه « اصل
العائلة والملكية الخاصة والدولة » مثال بعض جزر المحيط الهادي
حيث يعيش حوالي ٧٠٠ من الناس ، بل قبائل كاملة في بعض
الاحيان ، تحت سقف واحد ، وفي اقتصاد مشترك .

لقد كان هذا النظام المشاعي البدائي ضروريا للمجتمع
الانساني ، في تلك المرحلة من التطور . فلقد كان من المستحيل
على المجتمع ، لو عاش افراده حياة منعزلة مبشرة ، ان يخترع
الاسلحة والادوات البدائية ، وان يحسنها فيما بعد . ولم يستطع

الناس ان يحرزوا انتصاراتهم الاولى في ميدان الكفاح ضد الطبيعة ،
الا بفضل حياتهم التعاونية . لقد كان اتحادهم في « بطن » مشاعي ،
هو قوتهم الرئيسية .

لم يكن استغلال انسان لانسان آخر موجودا في المجتمع
المشاعي البدائي ، بل لم يكن هذا الاستغلال ممكنا فيه . لقد
كان العمل مقسما بين الرجل والمرأة ، وكان في القبيلة افراد اقوى
من غيرهم وافراد اضعف ، ولكن لم يكن هناك استغلال .

ليس الاستغلال ممكنا ، الا اذا استطاع الانسان ان ينتج من
وسائل الحياة ، ما يكفي له ، ولآخرين ايضا . فبهذا الشرط وحده ،
يمكن لفرد ان يعيش عالة على عمل الآخرين . ولم يكن من الممكن
والحالة هذه ، ان يوجد في المجتمع البدائي ، المجر على تدارك
رزقه يوما فيوما ، أي استغلال ، وهو المجتمع الذي لم يكن
يستطيع ان ينتج الا الضروري الصرف من الاشياء . اما الاسرى
الذين كانت القبائل تحصل عليهم في الحرب ، فكانوا يقتلون -
ويؤكلون أحيانا - او يقبلون أعضاء في القبيلة الأسيرة . .

لقد كان مستوى تطور قوى المجتمع المنتجة هو الذي يحدد
ظروف النظام المشاعي البدائي . ومن الخطأ التصور ان الناس
البدائيين هم الذين اوجدوا هذا النظام عن وعي منهم ، فلقد تشكل
وتطور بصورة طبيعية ، ودون علاقة بارادة الناس او وعيهم .

« ان الناس ، اثناء الاجتماع لمعيشتهم ، يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ، ضرورية ، مستقلة عن ارادتهم . وتطابق علاقات الانتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية » (١) .

ولقد جاء التطور الذي حدث بعد ذلك في قوى المجتمع البدائي المنتجة - كتحسين الادوات الموجودة ، واختراع ادوات جديدة ، وظهور تربية المواشي ، والزراعة ، واستعمال الفلزات - فادى الى حدوث تغيير في علاقات الانتاج وتفسخت المشاعية البدائية وفقا لذات الضرورة الطبيعية التي اوجدتها ، واخلت المكان امام مجتمع الطبقات .

انحلال المشاعية البدائية

كان تدجين الحيوانات : وحلول تربية المواشي محل قنصها ، العامل الذي فتح عهد تفسخ نظام المشاعية البدائية . فقد عرفت القبائل ، التي كانت تعيش في اراض غنية بالمراعي ، تربية المواشي للمرة الاولى (وكان ذلك على الاخص على ضفاف

(١) كارل ماركس : « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » ، المقدمة - الطبعة العربية : مجموعة « دراسات اقتصادية » لماركس وانجلز ، دار دمشق ، ١٦٤ ، ص ٥٢ .

الانهار الكبرى ، في جنوبي غربي آسية ، والهند ، واحواض آموداريا وسيرداريا - آسية الوسطى السوفياتية ، ودجلة والفرات) . ووضحت تربية المواشي بالنسبة لهذه القبائل مصدرا ثابتا للحليب واللحم والجلود والصوف . فكانت قبائل الرعاة بذلك تملك من الاشياء المعدة للاستعمال ما كانت القبائل الاخرى - التي لا تربي المواشي - محرومة منه . واذن فقد سجل ادخال تربية المواشي اول تقسيم اجتماعي للعمل . وقبل ذلك . كانت المقايضة بين القبائل المختلفة ترتدي طابعا عارضا ووليد الصدفة المحضة ، ولم يكن لها في حياة القبائل والبطون اي دور . ولكن تقسيم العمل بين قبائل الرعاة والقبائل الاخرى ، دشن عهد المقايضة المنظمة فيما بينها .

ثم كانت ثاني خطوة الى الامام في تطور القوة المنتجة ، ظهور الزراعة (زراعة البساتين اول الامر ، ثم النباتية . وقد ادى اختراع نول الحياكة الذي يرجع الى زراعة الحبوب فيما بعد) ، فلقد خلقت مصادر دائمة للاغذية النباتية وقد ادى اختراع نول الحياكة الذي يرجع الى هذا العهد ايضا ، الى امكان نسج الاقمشة والثياب الصوفية ، وتعلم الناس بعد ذلك ان يصهروا الفلزات المعدنية كالنحاس والرصاص (اما استخراج الحديد . فقد اكتشف فيما بعد) ، وان يصنعوا ادوات واسلحة وأواني من البرونز (١) .

(١) البرونز : خليطة من النحاس والقصدير ، شديدة الصلابة ، ولعل اقرب كلمة عربية تقابلها بالمعنى : القلز (بضم القاف واللام وتشديد الزاي) . (المراجع)

وظهور الرق ادى الى عدم التساوي بين أعضاء « البطن » ذاته ،
وبالدرجة الاولى بين الرجل والمرأة .

« كان الكسب دائما عمل الرجل ، وهو الذي يصنع ويملك
الوسائل الضرورية لهذا الكسب . وكانت قطعان المواشي هي
وسيلة الربح الجديدة ، ولذلك كان تدجينها أولا ، وحراستها
ثانيا ، عمل الرجل ، ولهذا كانت بالتالي ملكا له ويعود اليه
ما يحصل عليه مقابلها من سلع وعبيد . . . كان كل ما يأتي به الانتاج
آنئذ من ربح يعود الى الرجل ، وكانت المرأة تتمتع به معه . ولكن
دون ان تكون لها اية حصة في ملكيته » (١) .

وفيما بعد ، ظهر عدم التساوي بين رؤساء الاسر المختلفة ،
وساعد عليه ما نتج عن التقسيم المتزايد للعمل من جراء تطور
المقايضة . وجاء استعمال الحديد فزاد في تنوع الادوات والاشياء
المستعملة ، واتسعت الزراعة كذلك بفضل ادخال المحراث ذي
السكة الفلزية ، فأضيفت الى الحبوب مزروعات اخرى .

« ولم يعد ممكنا بعد هذا ان يقوم الفرد نفسه بعمل بلغ هذا
المبلغ من التنوع ، فحل اذ ذاك ثاني تقسيم كبير للعمل : فانفصل
العمل الحرفي عن الزراعة » (٢) .

(١) انجلز : المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

(٢) انجلز : المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

أول انقسام للمجتمع الى طبقات

وقد كان من اثر هذا كله ، ان زادت على مقياس واسع ،
انتاجية العمل ، وسيطرة الانسان على الطبيعة واطمئنانه لفده .
ولكن هذه القوى المنتجة الجديدة للمجتمع كانت قد تجاوزت حدود
المشاعية البدائية .

« ان نمو الانتاج في جميع فروع - تربية المواشي ، والزراعة ،
والانوال المنزلية - اعطى قوة العمل الانسانية القدرة على خلق
كمية من المنتجات اكثر مما يجب للقيام بأود الانسان ، وزاد في
الوقت ذاته مجموع العمل اليومي الذي يقع على عاتق كل فرد
من افراد العشيرة ، او المشاعية المنزلية ، او الاسرة المنعزلة ،
فصار من المرغوب فيه ضم قوى عمل جديدة ، فقدمتها الحروب ،
وهكذا حول أسرى الحرب الى عبيد . . . لقد ولد من اول تقسيم
اجتماعي كبير للعمل ، اول انقسام كبير للمجتمع الى طبقتين :
أسياد وعبيد مستغلين ومستغلين » (١) . كان العبيد اناسا غرباء
عن « البطن » ولا يشكلون جزءا منه . ولكن تطور القوى المنتجة

(١) فريدريك انجلز : « اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » - الطبعة

العربية : دار الفارابي ودار الكتاب العربي ، دمشق ، ١٩٥٨ ، ص ٢٥٤ .

والتي كانت تمارس في ذلك الوقت من العبيد نشأت فوارق جديدة بين الأغنياء والفقراء - فمع هذا التقسيم الجديد للعمل نشأ نظام جديد للمجتمع إلى طبقات . ان الفوارق في الملكية بين رؤساء الأسر الفردية قد فسخت المشاعية المنزلية القديمة حيث كانت الأسر قائمة ، وانحل معها العمل المشترك في الأرض لحساب هذه المشاعية ، ومنحت الأسر الخاصة الأرض القابلة للزراعة ، لمدة محدودة أول الأمر ، ثم صارت ملكا لها إلى الأبد (١) .

وهكذا تم الانتقال إلى الملكية الخاصة .

وقد أدت كثافة السكان المتعاظمة الناشئة عن إنتاجية العمل المتعاظمة ، وعن تزايد الروابط بين مختلف القبائل التي دمج البطون والقبائل ، شيئا فشيئا ، في شعوب . ونجد من جهة أخرى ، ان تفسخ المشاعية البدائية ، والتفاوت المتزايد بين أعضائها ، وعلى الأخص استخدام عمل العبيد على نطاق عام . كل ذلك أدى إلى تشكيل الدولة كجهاز سيطرة من الطبقة المستغلة على الطبقة المستغلة .

لقد تفسخ نظام المشاعية البدائية تحت ضغط القوى المنتجة التي أوجدها ، وأفسح المكان لمجتمع جديد منقسم إلى طبقات .

(١) الجزء : المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

يزعم أعداء الشيوعية ، ان مجتمع المشاعية البدائية لم يوجد قط ، على دعواهم ، وان الملكية الخاصة وانقسام المجتمع إلى طبقات ، كانا موجودين منذ وجد المجتمع . ويسمى هؤلاء جهدهم ليظهروا ان الملكية الخاصة لاتنفصل عن طبيعة الانسان ذاتها ، وانه لايمكن للملكية من نوع آخر ان توجد ، وان المجتمع كان دائما منقسما إلى طبقات وان مجتمعا دون طبقات هو فرضيه لايمكن تصورها . ان انكار وجود المشاعية البدائية هو من مصلحة البرجوازية وعملائها ، في نضالهم ضد الشيوعية الحديثة .

ولقد برهن ماركس وانجلز منذ ١٩٤٥ (في كتاب «الفكر الألماني») ان المشاعية البدائية كانت الشكل الأول للمجتمع . ثم وصل العالم الأميركي موغان بعد ذلك بثلاثين سنة (في ١٨٧٧) ، وبصورة مستقلة عن أبحاث ماركس وانجلز ، إلى النتيجة ذاتها ، بعد ان درس مطولا القبائل المتوحشة وشبه المتوحشة في أميركة وجزر المحيط الهادي . ولاتزال بقايا المشاعية البدائية موجودة حتى أيامنا هذه لدى عدد من الشعوب في شكل مشاعية زراعية ، تملك الجماعات الزراعية فيها الأرض ملكا مشتركا ، وتوزع حصصا منها على أعضائها للتصرف بها بصورة مؤقتة . وليس يمكن بعد هذا ان يوضع موضع الشك ، وجود المشاعية البدائية كنقطة بدء في تطور الشعوب كلها .

ولنبحث الآن في نظام الرق الذي نشأ على انقاض المشاعية البدائية .

٢ - نظام الرق

لم يكن عمل العبيد في بداية هذا النظام ، شائعا على نطاق واسع . فكانت هناك ، الى جانب الاسر التي تستخدم هذه اليد العاملة ، اسر كثيرة تكتفي بقوى عملها الاسرية الخاصة . ولكن لما تطورت المبادلة ، وظهر النقد ، ازال الاستثمارات الكبيرة ، التي كانت تستخدم جهد العبيد ، الاستثمارات الصغيرة . واليك كيف تم هذا النهج .

ادى ازدياد تقسيم العمل والتبادل ، الى نشوء التجارة ، وطبقة التجار الذين يشترون البضائع ويبيعونها . وكان هذا كما قال انجلز « ثالث تقسيم للعمل ، ذي اهمية حاسمة » . فان التجار كانوا يستفيدون من عزلة المنتجين الصغار عن السوق ، فيشترون منهم السلع باسعار بخسة ، ويعاودون بيعها باسعار اعلى ، فكانوا بهذا الشكل يستغلون المنتجين والمستهلكين في وقت واحد . ثم كان من نتيجة نمو الانتاج السلعي والتبادل النقدي ، من جهة اخرى ، ان « جاء اقراض المال بعد شراء السلع به ، وجاءت معه الفائدة والمراباة » (١) .

ان راس المال الربائي يكبل المنتجين الصغار - الفلاحين والحرفيين - ويستعبدتهم عن طريق الديون . ففي اليونان

(١) انجلز : « اصل العائلة » ، ص ٢٦٢ .

القديمة ، وفي روما ، وقع اكثر المنتجين الصغار في حقة قصيرة من الزمن في عبودية المربين . وقد كان الصراع بين المربين وبين مدينتهم ، الشكل الرئيسي للصراع الطبقي بين السكان الاحرار .

« كان الصراع الطبقي ، في المجتمع القديم ، وبالدرجة الاولى ، صراعا بين الدائنين والمدينين ، وقد انتهى في روما الى زوال المدين من طبقة العامة وتحوله الى عبد » (١) وقد ادى هذا الصراع الى خراب المنتجين الصغار وتحولهم الى بروليتاريين . ولكن هؤلاء في روما القديمة ، لم يكونوا بروليتاريين بالمعنى الحديث للكلمة ، ولم يكونوا ايضا عمالا ، انهم جماعة من المعدمين لا غير (٢) . وقد احتكر كبار الملاكين العقاريين اراضي الفلاحين الذين اسابهم

(١) ماركس : « راس المال » ، الكتاب الاول - طبعة دار اليقظة العربية ، دمشق ، ١٩٥٨ ، الجزء ١ ، ص ٢٠٠ طبعة مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٥٦ ، الجزء ١ ، القسم ١ ، ص ١٨٠ .

(٢) « بروليتاريا » كلمة مشتقة من لفظ « النسل » باللغة اللاتينية ، كانت تطلق في التشريع الروماني على أدنى طبقة من المواطنين في مجتمع روما القديمة ، والتي كانوا يعتبرون انها لا تفيد الدولة الا بانتاج النسل وان الدولة مضطرة لاعتلتها لهذه الغاية . ولم تكن هذه الطبقة على العموم منتجة بل كانت معدمة ومعيشتها عالية على المجتمع . أما الطبقة المنتجة الكادحة آنذاك فكانت طبقة العبيد .

أما البروليتاريا الحديثة ، فهي طبقة الكادحين في المجتمع الرأسمالي الحديث ، وهي لا تشابه البروليتاريا القديمة الا من حيث أنها لا تملك ، بيد

الغربي ، والشأنوا عن طريق مسمى استخدام عمل العبيد ،
استثمارات كبيرة لتربية المواشي والزراعة ، وزراعة البساتين ،
سميت « لايفورديا » . وصار عمل العبيد يستخدم أكثر فأكثر في
معامل الحرفيين التي كانت أحيانا على درجة من الاتساع لإبأس
بها . وصار العبيد يعملون في المناجم والورشات الكبرى ، وفي شق
الطرق ، وفي السفن ذات المجاذيف ، وفي كل مكان . لقد أصبح
نظام الرق أساس كل الإنتاج . وصار عدد العبيد يفوق عدد
السكان الأحرار أضعافا عدة . فكان في أثينة ٢٦٥ ألف عبد مقابل
٩٠ ألف حر ، وفي قورنثوس ٤٦٠ ألف عبد مقابل ٤٦ ألفا من
الأحرار .

وهكذا تقدم تجمع الثروة وتمركزها في أيدي طبقة قليلة
من الناس ، تقدما سريعا ، مع اتساع التجارة والنقد والربا ،
وتملك الأرض والاسترهان . وإلى جانب هذا ، ازداد افقار

الها تحالف مخالفة شديدة من حيث أنها هي التي تنتج معظم خيرات المجتمع
الحديث . وقد استعار الكلمة القديمة بعض الكتاب الفرنسيين البرجوازيين
في القرنين الثامن والتاسع عشر وأطلقوها على الطبقة التي لا تملك في المجتمع
الرأسمالي الحديث . وشاع من ثم استعمالها في اللغات الأوروبية ، على
ما يصوي عليه هذه التسمية من تحقير لهذه الطبقة ذات الشأن العظيم .

ولذا فإنه يحسن لنا في اللغة العربية أن نجنب تسمية هذه الطبقة
« البروليتاريا » وأن نعربها « الطبقة الكادحة » ، إذ أن الكدح هو دورها
مهم في المجتمع . وهو عنوان أنصاتها وشرفها . (المراجع)

الجماهير ، وتضخيم جموع الفقراء ... ومع هذا الانقسام بين
الرجال الأحرار إلى طبقات حسب ثرواتهم ، ازداد بشكل كبير ،
وخصوصا في اليونان ، عدد العبيد الذين كان عملهم الإجباري يؤلف
القاعدة التي يقوم عليها البناء الاجتماعي الفوقي كله « (١) » .

كان العبد ملكا مطلقا لسيده الذي كان يستطيع أن يتصرف
به تصرفه بالسوانم . وكان العبيد محرومين من كل الحقوق المدنية ،
حتى الأساسية منها . وكان أسيادهم يستطيعون قتلهم دون أن
ينالهم عقاب . ومن الراهن أن ظروفنا كهذه ، كانت تجعل من
الضروري اللجوء إلى العنف لإرغام العبيد على العمل . فكان استغلال
العبيد الفظيع سبب اتلاف قواهم السريع ، فاذا عجزوا عن
العمل ، قتلوا . وكان من الضروري لاستبدال الموتى بغيرهم ،
ولتوسيع الإنتاج ، أن يكون هناك رفق لا ينقطع من العبيد ، فكان
الاسياد يتداركونهم عن طريق الحروب التي كانت تشنها
الدول النخاسية دون انقطاع تقريبا .

وقد أدى استغلال العبيد ، هذا الاستغلال الحاد ، إلى
تمردات ، كان أخطرها التمرد الذي قاده إسبارطاكوس من سنة
٧٣ إلى سنة ٧١ قبل الميلاد ، ولكنها انتهت جميعا إلى الفشل .

(١) انجلز : « أصل العائلة » - الطبعة العربية ، ص ٢١٤ .

دور كبري في تطور الحضارة ، في مرحلة ضرورية في تطور المجتمع البشري .
 وكان الرق في ذلك الوقت ، في ظروف الاستغلال المباشرة البدائية ، الأساس
 لاجتماع الناس في القرى والبلدات .

كان الرق نظام الرق ، في الظروف التي حدث فيها ،
 تقدما كبيرا . ولقد كان منتظرا قطعا ، ان الانسانية التي ولدت
 من حيوانية ، كانت بحاجة الى وسائل بربرية ، بل وحيوانية
 تقريبا ، لتفرض عنها آثار البربرية (١) . كان العمل اليدوي اذ
 ذلك اساس الانتاج ، ولم يكن الانتاج الكبير ممكنا دون استخدام
 عمل العبيد على نطاق واسع . لقد جعل نظام الرق في حيز
 الامكان ، ايجاد تقسيم اكبر للعمل بين العمل الحرفي والزراعة ،
 كما سمح ببناء الآثار الضخمة التي بناها الاقدمون ، وبانشاء الملاحة
 وصناعة استخراج كنوز الارض . ولولا نظام الرق ، لما استطاعت
 العلوم والفنون (كالرياضيات والميكانيك والجغرافية والفلك
 والنحت والفنون الجميلة) ، ان تبلغ ما صارت اليه ايام
 الاقدمين من مستوى رفيع نسبيا .

ولكن تطور القوى المنتجة ، لم يكن يفيد الا حفنة من
 المستغلين . اما بالنسبة لمجموع العبيد ، فكان يعني مالا يطاق من
 الآلام وضروب الحرمان . ولكن هذا كان على وجه العموم ، قانون

(١) فريدريك انجلز : « رد على دوهرينك - السيد أوجين دوهرينك يقبل
 الحق في ذلك » - الطبعة العربية : بعنوان : « اني دو هرينغ » ،
 دار النشر : ١٩٦٥ ، ص ٢١٧ .

تطور القوى المنتجة في المجتمع المنقسم الى طبقات .

« لما كان اساس الحضارة استغلال طبقة لآخرى ، كان لابد
 لتطورها كله ان يتخبط في تناقض مستديم . فكل خطوة الي
 الامام في الانتاج ، هي في الوقت ذاته خطوة الى الوراء في وضع
 الطبقة المضطهدة ، اي الاكثرية الكبرى من الناس . وكل خير
 لاحدى الفئتين ، هو بالضرورة شر للفئة الاخرى . وكل تحرر
 جديد لطبقة من الطبقات ، اضطهاد جديد لطبقة اخرى وان لنا في
 استعمال الآلة ، وما نجم عنه من نتائج معروفة في العالم كله . برهانا
 ساطعا على ما نقول » (١) .

كان نظام الرق شكلا اجتماعيا ضروريا من اشكال تطور
 القوى المنتجة ، في مرحلة معينة من مراحل التاريخ . ولكن هذا
 التطور كان بدوره ، سببا لانحطاط هذا النظام .

انحطاط نظام الرق

لم تتطور المهانة (التكنيك) في ظل نظام الرق ، اي تطور
 تقريبا . فقد كانت روما القديمة واليونان تطوران على الاخص
 انتاج الاشياء الكمالية والاسلحة ، وبناء القصور والمعابد ، والطرق

(١) انجلز : « اصل العائلة » - الطبعة العربية ، ص ٧٢٩ .

الغربية . أما المهارة ، وخصوصا في الزراعة التي كانت فرعا أساسيا من فروع إنتاج ذلك الزمان ، فقد بقيت دون أي تغيير تقريباً ، وكان أساس تطور الإنتاج هو استخدام يد العبيد العاملة لترخيصه ، وكان ذلك يفرض زيادة عددهم دون انقطاع ، ولما كانت الحرب مع المصير الرئيسي لتدارك العبيد ، فقد فتحت روما خلال بضعة قرون اوروبية الغربية كلها تقريباً ، وآسية الصغرى ، وساحل افريقية الشمالية على البحر الابيض المتوسط .

وقد خضعت المقاطعات التي فتحتها روما لاستغلال رهيب فكانت موردا خصباً تجني منه روما الضرائب ، ويخضع سكانها لنهب الموظفين الرومانيين الاداريين والجيوش الرومانية المقيمة فيها ، نهبا لارحمة فيه . ولقد ادى هذا الاستغلال البربري للشعوب المغلوبة على امرها الى تدمير قواها المنتجة تدميراً عاماً .

واذا كان نظام الرق في عهد نشأته ، وفي ايامه الاولى ، عاملاً في تطور القوى المنتجة ، فقد صار فيما بعد سبباً لتدمير هذه القوى . وكان لهذا الانحطاط في القوى المنتجة ان يؤدي بدوره الى انحلال نظام الرق وزواله . وعلى قدر ما كان يزداد الفقر الشامل ، وانحطاط التجارة والعمل الحرفي والزراعة ، كان عمل العبيد ينقطع تدريجياً عن ان يكون عملاً مفيداً ، وذا ربح .

« لقد قضى نظام الرق القديم زمنه ، ولم يعد يعطي

بعد ذلك أية فائدة تستحق الذكر ، لافي الريف حيث الزراعة الكبرى ، ولا في المعامل اليدوية في المدن ، واختفى سوق منتجانه » (١)

فلما انحطت الاستثمارات الكبيرة المؤسسة على عمل العبيد ، عاد الانتاج الصغير فصار مربحاً من جديد ، واخذ عدد العبيد المعتقين يتزايد دون انقطاع ، ويرافق تزايد تجزئة المزارع الكبيرة (لاتفونديا) الى ارض صغيرة يزرعها العامرون (٢) . كان العامر مزارعاً يتلقى ارضاً يتصرف بها ابداً ، ويقدم مقابلها اتاوة نقدية ، او من محصوله . ولم يكن هذا العامر مزارعاً حراً ، لانه كان مرتبطاً بالارض لا يستطيع تركها ، كما كان يمكن ان يباع معها . ولكنه من جهة اخرى ، لم يعد عبداً ، فلم يعد ملكاً شخصياً لسيد الارض ، ولم يعد لهذا السيد ان يجبره على القيام بهذا العمل او ذاك ، ولا ان يحرمه من الارض التي كان مرتبطاً بها . ولقد كان اولئك العامرون اسلاف اقنان العصر الوسيط ، وكان اكثرهم من العبيد السابقين ولكن بينهم مع ذلك عددا من الرجال الاحرار ايضا ، انحدروا الى مرتبة العامرين ، ولو كانوا اقل عدداً .

(١) انجلز : « اصل العائلة » - الطبعة العربية ، ص ٢٢٥ .

(٢) آثرنا كلمة « العامر » لترجمة « كولون » ، ولم نستخدم « مستعمر »

لغناها الحديث المشهور . والعامر من عمر الارض بمعنى سكنها وأحيائها .

« لم يعد نظام الرق يعطي أية فائدة ، ولذلك راح يموت شيئا فشيئا . ولكنه يتروك وراءه إرثه السامة : وهي احتقار الرجاء الأسرار للعمل المنتج . هنا كان المآزق الذي وقع فيه العالم الروماني ، والذي لم يجد منه مخرجا . فنظام الرق لم يعد ، من الناحية الاقتصادية ، نظاما يمكنه البقاء ، وعمل الرجاء الأحرار كان ، أخلاقيا ، موضع الاحتقار . فالرق لم يعد يمكن أن يكون أساس الإنتاج الاجتماعي ، وعمل الأحرار لم يكن يمكنه ، حتى ذلك الوقت أن يكون أساسا له . وكان العلاج الوحيد لهذه الحالة ، ثورة كاملة » (١) .

عندما كان اقتصاد نظام الرق قويا وثابتا ، انتهت تمردات العبيد التي كانت تحدث من وقت لآخر إلى الفشل (واكبرها جميعا تمرد اسبارطاكوس في سنتي ٧٣ - ٧١ قبل الميلاد) . ولكن الوضع تغير تماما مع انحطاط اقتصاد نظام الرق ، وانحطاط الإمبراطورية بوجه عام ، وقد تكلمنا عنه آنفا . وقد اتخذت تمردات العبيد منذ القرن الثاني للميلاد ، شكلا أكثر حدة ، وصادفت على الأغلب نأييدا من قبل الطبقات الفقيرة من السكان الأحرار - وهو امر له أهمية خاصة . واتفق في الوقت ذاته ، أن بدأ البرابرة الجرمان

(١) انجتر : « أصل العائلة » - الطبعة العربية ، ص ٢٢٧ .

يتوغلون في أراضي الإمبراطورية الرومانية . كانوا في حالة حرب معها منذ عدة قرون فسهل هجوم الجرمان تمردات العبيد داخل روما . وساهمت هذه التمردات ، التي تكون بمجموعها مايسمى ثورة العبيد ، في هزيمة روما على يد الجرمان ، وادت هذه الهزيمة من جديد ، إلى الإسراع في سر ثورة العبيد وتصفية نظام الرق .

في نهاية القرن الخامس ، انتهى صراع الجرمان مع روما إلى هزيمة الإمبراطورية الرومانية وإلى تفتتها . وكانت الشعوب الجرمانية ، وعددها خمسة ملايين تقريبا ، في درجة منحلة من درجات التطور ، وكان الرق موجودا لديهم بشكله البدائي ، وكانت « بطون » القبائل الجرمانية ، بسبب نضالها ضد روما مدى عصور كاملة ، تحمل على الاختص طابع ديموقراطية عسكرية . إلا أن الجرمان لما فتحوا روما ، تخلوا عن نظام « البطون » الذي كان يستحيل معه إدارة الدولة ، وخلقوا سلطة سياسية جديدة : السلطة الملكية التي كانت في الأساس سلطة القائد العسكري .

لقد اخذ الفاتحون الجرمان ، ثلثي مجموع أراضي الرومان ، ووزعوها على « البطون » والأسر . ولكن قسما هاما من الأراضي المفتوحة ، وزعها الملوك على القادة العسكريين ، الذين اعطوها بدورهم إلى محاربيهم ليتصرفوا بها تصرفا دائما ، دون أن يكون لهم حق بيعها أو التخلي عنها لآخرين . أن هذه الأراضي التي

بقيت تحت سلطة الدولة الأولى ، سميت أقطاعات ، وسمي أصحابها
أسيادا إقطاعيين . ولم يكن في وسع انتاج الفلاحين الصغير ، في
ذلك العصر البقاء بالحروب المستمرة ، ان يعيش دون حماية
الاسياد الإقطاعيين الكبار الذين كانوا في الوقت ذاته قادة عسكريين .
فوقع الفلاحون تدريجيا ، وخلال ٤٠٠ سنة منذ سقوط روما ،
تحت سيطرة هؤلاء الاسياد . وكان الفلاحون مرغمين على ان يضعوا
أراضيهم تحت حماية السيد الإقطاعي ، الذي يصبح مالكا لها ،
دون ان يستطيع بيعها او التخلي عنها لشخص ثالث . ومقابل
هذه الحماية ، كان الفلاحون يتعهدون بأن يقدموا للسيد الإقطاعي
ولجنوده ، محصولات غذائية ، وان يقوموا بمختلف الأعمال
لحسابه . وهكذا نشأ حوالي القرن التاسع ، النظام الإقطاعي ،
أو الإقطاعية .

٣ - الإقطاعية

كان الانتاج الفلاحي الصغير وانتاج صغار الحرفيين الاحرار ،
الأساس الاقتصادي لنظام الانتاج الإقطاعي . وكان الانتاج انتاجا
طبيعيا بالدرجة الأولى ، أي ان الحاجات المنتجة فيه لم تكن
معدة للتبادل .

وانخذ الاستغلال الإقطاعي للفلاحين شكلين رئيسيين :

١ - اجبار الفلاح على ان يعمل مجانا اياما معينة من الاسبوع

في حقول السيد (وهي السخرة) ، ٢ - اجباره على تسليم جزء
من محصول ارضه الخاص (وهي الاتاوة) . وكان الفلاح يملك
حق ترك سيده لينضم الى سيد آخر ، ولكنه لا يستطيع مع ذلك
ان يتحرر من السيادة الإقطاعية .

وكان المنتجون الحرفيون المستقلون الذين يقطنون في المدن
وينتجون بقصد البيع ، يسدون قسما كبيرا من حاجاتهم بما
ينتجونه بعملهم الخاص (فكانوا يملكون مواشي ، وبستانا وحقلا
في بعض الاحيان) ، وكان التبادل محليا على الاخص ، ويجري بين
المدينة والقرى المجاورة لها . وإلى جانب هذا ، كانت هناك
تجارة المنتجات المستوردة من البلدان الاخرى ، وخصوصا
الاشياء الكمالية ، والافاوية (البهارات) وغيرها . ولكن لم يكن
هناك تقريبا تبادل بين المناطق المختلفة للبلد الواحد . ولما كان طابع
الانتاج طبيعيا ، وكان تطور المبادلات ضعيفا ، وكانت الطرق
والمواصلات سيئة ، كانت البلاد مجزأة الى مقاطعات ومناطق
مستقلة ، واضطرت المدن التي كان يسكنها الحرفيون والتجار
على الاخص ، لان تخوض غمار نضال قاس وطويل الامد ، لتفوز
بالحكم الذاتي ، فكانت محصنة ، وتملك حامياتها الخاصة . وكان
الحرفيون متكئين في هيئات حرفية استندى وجودها مستودعات
مشتركة ، وضرورة مراقبة الاسعار ونوع المصنوعات بغية تفادي

المراسمة . وكان النجار يملكون بدورهم هيئتهم الخاصة ، ار
مقاييد . وقد حصد النجار هذا التنظيم في المدن ، ورغبوا بتقويته .
فلموا لمناجحتهم الى الدفاع عن استقلالهم ضد الاسياد الاقطاعيين .
ان النظام الحرفي في المدن كان متمما للنظام الاقطاعي في الزراعة .

مع تطور التبادل ، اخذ استغلال الفلاحين يزداد شدة .
خطوة فخطوة . فكلما اتسع التبادل ، وكلما استطاع السيد
الاقطاعي شراء اشياء كمالية واسلحة لمحاربيه ، كلما وجب عليه
بالتالي ، ان يستنزف من فلاحيه اكثر مما كان يستنزف قبلا .
فصارت حقول الاسياد تتسع على حسب اراضي الفلاحين ،
« والسخرات » تزداد معها « الاتاوات » .

ثم ازداد استغلال الفلاحين شدة ، على اثر نشوء دول ممركة
مكل الاقطاعات الاقطاعية المتعددة . فقد كان تجزؤ البلاد الى
مقاطعات مستقلة ، يعوق التجارة ، لان كل سيد اقطاعي كبير
كان يفرض مكوسا على السلع التي تمر في املاكه ، ويسك عملته
الخاصة ، النخ . وكانت التجارة من جهة أخرى عملا غير مضمون ،
بالنظر للفترات المستمرة التي كانت الجيوش الاقطاعية تشنها
على قوافل البضائع . ولذلك كان التجار يريدون هدم استقلال
الاقطاعيين . فاستفادوا من النضال الناشب بين الاسياد الاقطاعيين
المختلفين ، لينحازوا الى اقواهم ، ويعينوه على اخضاع الآخرين .
فلما نمت السلطة السياسية المركزية . حلت الجيوش الاقطاعية .
واستبدلت بالجيوش الملكي ، فاضيفت الى « الاتاوات » التي كان

يدفعها الفلاح الى سيده « اتاوات » اخرى معدة لسد نفقات الدولة
الاقطاعية . وصارت هذه « الاتاوات » التي تأخذها الدولة تستوفي
اكثر فأكثر نقدا لامحصولا ، وتحولت من عينية الى نقدية . وقد
ساعد هذا على تطور الانتاج السلمي ، لان الفلاح صار مضطرا
لبيع منتجاته في السوق ليحصل على المال اللازم لدفع الضرائب ،
وهكذا وقع الفلاحون تحت نير عبودية جديدة ، اذ خضعوا ايضا
للمحتكر والمرابي .

ادى استغلال الفلاحين المتعظم شدة الى دفع هؤلاء للهروب ،
وفي سبيل الحؤول دون هذا الهروب لجأ الاقطاعيون الى ربطهم
بالارض فأصبحوا اقنانا ، وفي ظل القنانة ازدادت تبعيتهم للاقطاعي
وتوثقت . كما ادى استغلال الفلاحين المتعظم شدة ، وادخال
نظام « القنانة » ، الى تمردات فلاحية كبرى انتهت جميعا الى
الفشل (كحركة « الجاك » في فرنسا في القرن الرابع عشر ،
وحرب الفلاحين في المانية في القرن السادس عشر ، وتمردات
رازين وبوغاتشوف في روسيا (١)) . وكان سبب فشلها ان الفلاحين
لم يجدوا حلفاء لهم في المدن ، اذ لم تكن الطبقة الكادحة الحديثة
قد وجدت بعد .

(١) رازين : قائد ثورة فلاحية من القوزاك ، في القرن السابع عشر .
بوغاتشوف : قائد ثورة فلاحية من القوزاك ، في القرن الثامن عشر . سحقت
كلا الثورتين بوحشية على يد السلطة الفيصرية . المراجع

وحدثت في المدن قسماً هامة ، فالعلاقات بين المعلمين
الحرفيين وهذه لهم أخذت قزداً عظيمة ، ومثلها العلاقات بين
الحرفيين والتجار ، واليك السبب في ذلك . كان الفلاحون خلال
القرن الأول من النظام الاقطاعي ، يهربون باستمرار نحو المدن
التي كانت تحكم ذاتها حكماً ذاتياً ، ويتمتع سكانها بحريتهم
الشخصية . وزداد ، بهذا الشكل على الاخص ، عدد سكان
المدن . وكان هذا مفيداً لها اول الامر ، اذ ان قوتها العددية كانت
تزداد بالتأخرين اليها ، وكانت هذه الزيادة تنفعها في نضالها
ضد الاقطاعيين . ولكن هذا التزايد في سكان المدن اوجد خطراً
هذه الحرفيين ، هو خطر المنافسة . فاخذت الحرف تتمد الى
التحديب والضيق في قبول الاعضاء الجدد في صفوفها ، واطالت
مدد التدريب في المدن ، وزادت في استغلال الصنائع حتى صار
من المبالى عليهم ، اكثر فاكثراً ، ان يصبحوا معلمين حرفيين .
واتخذت الحرف فوق هذا ، تدابير اخرى ترمي الى منع كل
الاساليب الجديدة من ان تدخل في الانتاج ، والى محاربة تجارة
المنتجات المستوردة ، فكان من ذلك ، ان نشب الصراع بين
الحرف وبين التجار .

المخطاط الاقطاعية

لقد صار التنظيم الحرفي الاقطاعي بذلك ، عقبة في وجه
كل تطور لاحق في الانتاج السلمي . وجاءت الاكتشافات الجغرافية

الكبرى في القرن الخامس عشر (اكتشاف الطريق البحرية الى
الهند ، واكتشاف امركة) فدفعت التجارة بقوة الى امام .

« فالتجارة بين اوروبة والعالم الخارجي ، التي كانت محصورة
في تجارة ايطالية مع دول المشرق فحسب ، اتسعت فشملت امركة
والهند ، وتجاوزت من حيث الاهمية جميع المبادلات القائمة بين
مختلف بلدان اوروبة ، وكل التداول الداخلي في كل بلد على حدة ،
تجاوزا سريعا . لقد جاء ذهب امركة وفضتها ، فاغرقا اوروبة ،
وتسربا الى كل مافي النظام الاقطاعي من ثغرات وشقوق وصدوع ،
بصفتها عناصر تفسخ وتهديم . ولما كان الانتاج الحرفي لم يمد
يكفي لسد الحاجات المتزايدة ، استبدل في البلدان المتقدمة عن
غيرها ، بنظام العمل اليدوي (١) « (٢) . واليك الآن كيف ولد
المعمل اليدوي الرأسمالي . لقد كان النول الصغير محتكراً في المدن
بيد الحرف . ولهذا ، اخذ راس المال التجاري الذي كان مسن
مصلحته تطوير الانتاج ، يوسع دائرة نشاطه الى ما وراء المدن ،
فعرز تطوير الانتاج الحرفي في الريف ، وخصوصاً انتاج النسيج ،

(١) المعمل اليدوي : « المانيفاكتورة » .

(٢) انجلز : « رد على دوهربنك » (« انتي دوهرنغ ») ، طبعة دار دمشق ،

فكر من راس المال من قبل وجوده في ربحية
العمل اليدوي . وكان هذا الشكل الثاني
للمنظمة الاقتصادية . اول الامر ، منتجاته بأسعار رخيصة
منه يتدفق من المصروف بعدد نفودا ومواد اولية على سبيل القرض .
فيستطيع العامل يشتغل بشخصه المواد الاولية التي تخص المتعهد
منه من ماله الخاصة لا غير ، واربعا بعد جهد ما يكاد يقوم
بمؤنه .

ويأخذ المتعهد بعد هذا ، بتكتيل الحرفيين المبعثرين في بناء
واحد . حيث يعملون منذئذ كعمال مأجورين محرومين من كل
وسيلة للانتاج . وعندئذ يصبح راس المال التجاري رأس مال
صناعي ، ويظهر الى جانب الانتاج السلمي الصغير الانتاج
الرأسمالي الكبير : أي انتاج المعمل اليدوي .

المعمل اليدوي هو قوة منتجة جديدة كل الجدة ، ومتعوفة
على قوة المنتجين الصغار . فهو يشغل كثيرا من العمال . يقوم
كل منهم بانجاز جزء معين من العمل ، فيكون عمل الجميع من
حيث القدرة الانتاجية اعظم بكثير من العمل المبعثر الذي يقوم به
المنتجون الصغار . ولم يكن التقسيم الاجتماعي للعمل موجودا
قبل ظهور المعمل اليدوي . الا بين مختلف المنتجين المستقلين الصغار
الذين تربط السوق بينهم . اما بعد ظهوره ، فقد اخذ تقسيم
العمل هذا يتحقق في داخل المعمل اليدوي ذاته .

ولهذه القوة المنتجة الجديدة ، علاقات انتاجية جديدة
توافقها . فلم يكن رأس المال من قبل موجودا الا بشكل رأس مال
ربائي وتجاري . وكان التاجر والمرايبي يستغلان صغار المنتجين
الذين يبيعون منتجاتهم الخاصة . اما بعد ظهور المعمل اليدوي ،
فلم يعد العامل يبيع منتجاته ، بل صار يبيع قوة عمله . الرأسمالي
هو الذي يملك وسائل الانتاج ، ويملك البضائع التي يصنعها
العامل ، ولا يتلقى العامل الا اجرا يعادل ثمن قوة عمله ، بينما هو
ينتج القيمة الزائدة للرأسمالي . صار العامل مستغلا من قبل
الرأسمالي ، وصار اسلوب الانتاج على هذا النحو اسلوبا
رأسماليا ، واخذت علاقات انتاج جديدة ، علاقات رأسمالية ،
تظهر وتتطور مع نمو القوى المنتجة .

ولكن النظام الاقطاعي كان يعوق التطور اللاحق لهذه
القوى المنتجة الجديدة ، ولعلاقات الانتاج التي توافقها ، وكان مما
يعوق هذا التطور ، النظام الحرفي في المدن ، ذلك الجزء المتمم
للنظام الاقطاعي . غير ان العلاقات الاقطاعية في القرية ، لم تكن
اقل اعاقا لتطور الانتاج الرأسمالي ، اذ ان ارتباط الاقنان بالارض
كان يحرم الرأسماليين من يد عاملة رخيصة . وهكذا نرى ان
الاقطاعية التي كانت متوافقة عند نشأتها ، مع مستوى القوى
المنتجة في المجتمع ، صارت متناقضة مع القوى المنتجة المتنامية
وصار الفاؤها ضرورة تاريخية .

ولما ازدادت حدة اضطهاد الدولة الاقطاعية للفلاحين
والجماعات البرجوازية الصغيرة والعاملة في المدن ، انفجرت
الثورات البرجوازية الرامية الى هدم النظام الاقطاعي وفسح
المجال امام تطور الرأسمالية . وقد حدثت هذه الثورات في
انكلترا في القرن السابع عشر ، وفي فرنسا عند اواخر القرن الثامن
عشر (١) .

« ان القوى المنتجة الجديدة التي حركتها البرجوازية ،
وفي الدرجة الاولى تقسيم العمل وحشد عدد كبير من العمال
المتخصصين في معمل يدوي واحد - وكذلك ما خلقتة هذه القوى
من ظروف التبادل وحاجاته ، كل ذلك صار غير متفق مع نظام
الانتاج السائد الذي ارثه التاريخ وكرسه القانون ، اي صار غير
متفق مع مافي النظام الاقطاعي من امتيازات حرفية ، وامتيازات
شخصية ومحلية لاتحصى (والتي كانت بمثابة عقبات في وجه
الجماعات المحرومة من الامتيازات) . وكان بالنتيجة ان تمردت
القوى المنتجة المتمثلة في البرجوازية ، ضد نظام الانتاج المتمثل

(١) وفي البلدان التي تطورت فيها الرأسمالية من بعد ، وجرت فيها
الثورة البرجوازية بعد ان تكونت الطبقة الكادحة الصناعية ، كما كانت
الحال في المانية سنة ١٨٤٨ ، وخصوصاً في روسية سنة ١٩٠٥ ، تفاهمت البرجوازية
مع الدولة الاقطاعية ، وتواطأت معها .
(المؤلف)

في الملاك العقاريين الاقطاعيين ، ومعلمي الحرف (١) .

٤ - الرأسمالية

تطورت الرأسمالية منذ كان الانتاج السلمي . اما قبل ظهوره
فكان الاقتصاد الطبيعي هو السائد لا الانتاج السلمي . ولقد وجد
التبادل ، والنقد ، والتجارة ، حتى في نظام الرق والنظام
الاقطاعي ، ولكن الكتلة الرئيسية من المنتجات فيهما لم تكن معدة
للسوق ، ولم يصبح الانتاج السلمي اسلوب الانتاج العام والسائد
الا في ظل الرأسمالية . وقد طورت الرأسمالية التقسيم الاجتماعي
للعمل ، على نطاق واسع . فمن المعمل اليدوي الرأسمالي الذي
يشكل فيه العمل اليدوي اساس الانتاج ، ينشأ المعمل الرأسمالي
المجهز بالوسائل الالية الضخمة ، وتزداد انتاجية العمل زيادة
هائلة ، وتظهر بضائع جديدة ، ويتعاظم عدد العامل . هذا في
حين تدمر الرأسمالية بعضاً من الاساليب القديمة للانتاج ،
وتسيطر على بعضها الاخر ، وتطور وسائل المواصلات ، وتسرب
الى كل زوايا المعمورة ، وتخلق السوق العالمية والاقتصاد
الرأسمالي العالمي .

ولكن الانتاج في النظام الرأسمالي لا يهدف الى اكفاء الحاجات
الاجتماعية ، بل الى تنمية ثروات الرأسماليين . فالسباق الى

(١) كارل ماركس وفريدريك انجلز : « الدراسات الفلسفية » - الطبعة
الفرنسية ، دار « اديسيون سوسبال » ، باريس ، ص ٥٨ .

التي هي القوة المحركة للرأسمالية . ان كل رأسمالي ، رغبة منه
باعتبار أكبر ربح ممكن ، ولتحت ضغط المنافسة ، يحاول زيادة
إنتاجه وتشغيله استغلال العمال ، وإدخال آلات جديدة محسنة
في الإنتاج .

وقد سبق أن أوردنا كلمات أنجلز حيث يقول ان « كل خطوة
إلى الأمام في الإنتاج ، هي في الوقت ذاته خطوة الى الوراء في وضع
الطبقة المضطهدة ، أي الاكثرية الكبرى من الناس » في المجتمع
المنقسم الى طبقات . والرأسمالية تزيد الى اقصى حد خطورة هذا
التناقض في المجتمع المنقسم الى طبقات .

« فالنظام الرأسمالي ، بصفته صانعا لنشاط الآخرين ،
ومستعدرا للعمل الإضافي ، ومستغلا لقوة العمل ، يفوق من حيث
الفترة والافراط والفعالية كل أنظمة الانتاج السابقة ، القائمة
على العمل الاجباري المباشر » (١) .

غير ان الرأسمالية ، عندما تطور قوى المجتمع المنتجة ، تبدو
يوما فيوما ، اقل قدرة على السيطرة عليها ، واجدى برهان على
ذلك ، هو تلك الازمات التي تأتي على نحو دوري فتزعزع النظام

(١) كارل ماركس : « رأس المال » - طبعة دار البقعة العربية ، دمشق ،
١٩٥٨ ، الجزء ١ من ٤٥٨ - ٤٥٩ - طبعة دار المعارف ، بيروت ، ١٩٥٦ ،
الجزء ٢ ، القسم ١ ، ص ٤٢٦ - ٢٤٧ .

الرأسمالي وتدمر جزءا من القوى المنتجة . وهكذا تصبح
الرأسمالية ، أكثر فاكثرا ، عائقا في طريق تطور هذه القوى التي
ولدتها هي ذاتها . ومن هنا يتبين ان الغاء الرأسمالية بالطرق
الثورية ، واستبدالها بالشيوعية ، أي بمجتمع دون طبقات
تكون وسائل الانتاج فيه ملكا مشتركا ، يصبح ضرورة تاريخية .

وهكذا يؤدي تطور الرأسمالية الى ايجاد الظروف المادية
والمهانية (التكنيكية) الضرورية لبناء المجتمع الشيوعي ، ويخلق
في الوقت ذاته ، القوة المدعوة الى قلب الرأسمالية : أي الطبقة
العاملة الثورية ، التي يزداد وضعها سوءا كلما تطورت الرأسمالية ،
والتي ليس لها من مخرج آخر غير قلب الرأسمالية وبناء المجتمع
الشيوعي .

التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج

تبين لنا النظرة السريعة التي القيناها على تطور المجتمع ،
ان الانتقال من اسلوب انتاج الى اسلوب آخر ، ليس وليد
الصدفة ، بل ينجم عن اشتداد التناقض بين القوى المنتجة
وعلاقات الانتاج . واليك في بضع كلمات ، كيف عرض ماركس
قانون التطور التاريخي هذا :

« ان البشر ، اثناء الانتاج الاجتماعي لمعيشتهم ، يقيمون

فإنهم يرون ضرورة مستقلة عن إرادتهم . وتطابق
 طرقهم التاريخية هذه درجة معينة من تطور قوائم المنتجة المادية .
 وهذه القوى المجتمعية المنتجة المادية درجة معينة في تطورها ،
 تصل في تناقض مع علاقات الإنتاج القائمة ، أي مع علاقات التملك -
 وتسمى هذه الآن التعبير الحقوقي عن تلك - التي كانت تتحرك في
 كنفها حتى ذلك الحين . فبعد أن كانت هذه العلاقات أشكالاً لتطور
 القوى المنتجة ، تصبح قيوداً لهذه القوى ، وينفتح عندئذ عهد
 ثورة اجتماعية (١) .

إن كل نظام لعلاقات الإنتاج ، أو كل تنظيم اجتماعي ، له
 خصائصه ، سواء أكان مشاعية بدائية ، أم رقا ، أم إقطاعية ،
 أم رأسمالية ، أم شيوعية . بيد أننا إذا نظرنا إلى أنظمة الإنتاج
 الثلاثة التي تلت المشاعية البدائية ، نجد أن هناك صفة مشتركة
 تجمع بينها جميعا : فإن علاقات إنتاجها علاقات طبقية . إن هذه
 الأنظمة الإنتاجية يميزها الصراع الطبقي ، ويشكل الصراع الطبقي
 فيها الخط الأساسي الذي يحدد كل الحياة الاجتماعية . إن
 الرأسمالية هي آخر مجتمع قائم على الصراع بين الطبقات ، آخر
 مجتمع منقسم إلى طبقات ، ويحل مكانه النظام الاشتراكي الذي

(١) كارل ماركس وفريدريك إنجلز : « الدراسات الفلسفية » - الطبعة
 الفرنسية ، ص ٨٢ .

لطبقات فيه (١) ، وهو المرحلة الأولى للشيوعية . ويبدأ حكم
 الطبقة الكادحة وإقامة رفاه (٢) الطبقة الكادحة .

(١) لا ينتفي وجود الطبقات من المجتمع بمجرد قيام ثورة الطبقة الكادحة
 وإقامة حكمها الجديد . بل تنقضي حقبة تاريخية كاملة بين ظفر الطبقة الكادحة
 بالحكم للمرة الأولى ، وبين انجاز التحويل الاشتراكي وبزوغ المجتمع الشيوعي .
 وطوال هذه الحقبة ، تبقى الطبقات موجودة في المجتمع الاشتراكي ، ويبقى
 الصراع محتدما بين الطبقتين : الطبقة الكادحة والطبقة المستغلة ، وبين الطريقتين
 في التطور الاجتماعي : الطريق الاشتراكية والطريق الرأسمالية ، وبين الخطتين
 السياسيتين : الخط الاشتراكي والخط الرأسمالي . وتعمد كل من الطبقتين
 إلى تنمية ونشر ثقافتها وأخلاقيها ومفهومها من العالم ، وتخلق وتطور قيادتها
 الفكرية والسياسية . وقد يبلغ الصراع بينهما أقصى درجات الشدة أحيانا ،
 كالحرب الأهلية ، ولا ينتهي إلا بعدما تتغلب الأفكار والأخلاق والنظم الاشتراكية
 نهائيا وتسود الحياة الاجتماعية برمتها ، وعندما تتم إزالة مخلفات عهود
 الاستغلال الطبقي كافة . وقد تستغرق حقبة الانتقال والتحويل هذه أجيالا
 عديدة من الناس . فالمجتمع الرأسمالي هو حقا آخر مجتمع منقسم إلى
 طبقات ، بيد أن استبداله بالمجتمع الشيوعي ليس أمرا آنيا سريعا ، بل هو
 بناء يبنى في خضم الصراع المتماهي .

ولعل قصر التجربة التاريخية التي عاشتها الاشتراكية ، وتلف الكادحين
 تلفا تشوبه المثالية ، إلى رؤية أميتهم التاريخية تتجسد في النظام الشيوعي ،
 هي بعض العوامل التي أدت إلى عدم الإحساس ، زمن تأليف هذا الكتاب
 في العقد الخامس من القرن العشرين ، بحتمية دوام وجود الطبقات والتناقض
 الطبقي ، وباستمرار الصراع بين الطبقتين والطريقتين والخطتين ، في كنف
 المجتمع الاشتراكي ، طوال حقبة تاريخية مديدة نسبيا ، تمتد ما بين الرأسمالية
 والشيوعية . (المراجع) .

(٢) الرفاه (بكسر الراء) : نظام الحكم الإرفامي الذي تفرضه إحدى
 الطبقات على سواها (الدكتاتورية الطبقية) . (المراجع) .

برهنا أن الاشتراكية ضرورة تاريخية وأن دكتاتورية الطبقة الكادحة ضرورة تاريخية أيضا ، باعتبارها شكل الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية .

إن مذهب ماركس وإنجلز الاقتصادي ، المتعلق بارتباط تطور علاقات الإنتاج بتطور القوى المنتجة ، يشكل جزءا رئيسيا في نظريتهما ، وإن نظرية ماركس لتجدد في ذلك المذهب أعمق تحقيق وتطبيق لها ، وأكثرهما اطلاقا وأشدّهما تفصيلا . وقد صرف ماركس وإنجلز اهتمامهما على نحو رئيسي ، إلى دراسة قوانين تطور الرأسمالية وسقوطها ، ليجدا الطريق إلى تحرر الطبقة الكادحة . فالنظرية الماركسية تضع أمامها هدفا مباشرا هو الكشف عن كل أشكال الصراع والاستغلال في المجتمع الحديث ، ومتابعة تطور هذه الأشكال ، والبرهان على أنها ذات طابع انتقالي ، وأنها لا بد متحولة من شكل إلى آخر . وبذلك تخدم هذه النظرية الطبقة الكادحة لكي تستطيع أن تتخلص من كل استغلال ، بأسرع ما يمكن وبأسهل ما استطاع . إن نظرية ماركس الاقتصادية هي أذن سلاح نضالي هائل في يد الطبقة الكادحة ، من أجل قلب الرأسمالية وبناء الاشتراكية . عاش ماركس وإنجلز وناضلا في عصر لم تبلغ تناقضات الرأسمالية فيه بعد الدرجة القصوى في تطورها . ولذلك لم يكن بوسعهما أن يحللا الظروف الجديدة التي تخلقها الرأسمالية في المرحلة العليا من تطورها . كان لينين هو الذي حلل قوانين

هذه المرحلة من الرأسمالية ، قوانين الاستعمار ، وقد بين لينين مستندا إلى قوانين تطور الرأسمالية التي كشف عنها ماركس ، أن الاستعمار هو الرأسمالية في حالة النزاع ودور التفسخ ، وأن ثورة الطبقة الكادحة في مرحلة الاستعمار تصبح ضرورة عاجلة ولا بد منها ، وأن ظفر الاشتراكية في ظروف الاستعمار يصبح ممكنا أول الأمر في بلد واحد . وقد زاد لينين في التعمق بكل المسائل الأساسية للماركسية ، بما فيها المسائل الأساسية في الاقتصاد السياسي ، رابطا إياها بالأهداف الجديدة للطبقة الكادحة الثورية . وجاء ستالين فطور الماركسية اللينينية وفقا لأهداف الطبقة الكادحة في مرحلة الازمة العامة للرأسمالية وبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي (١) .

(١) ظهر هذا الكتاب ، كما أسلفنا في العقد الخامس من القرن العشرين ، وكان يعبر عن الموقف الراهن آنذاك في الأوساط الماركسية اللينينية ، ولا سيما في أوروبا .

بيد أن التطور لا يستقر طويلا في موقف معين ، والتناقضات التي تنشأ وتتجدد أبدا في المجتمع تستفحل وتلح في طلب حلها . وهي لا بد واجدة حلا على يد القوى الجديدة الصاعدة إلى الثورة في كل عصر . وقد أخذت التناقضات الجديدة تظهر وتستفحل في العالم في عقود السنين الأخيرة ، في المرحلة الجديدة

فهرست

صفحة	
٦	توطئة
٨	١ - المشاعية البدائية
١٢	انحلال المشاعية البدائية
١٤	أول انقسام للمجتمع الى طبقات
١٨	٢ - نظام الرق
٢٣	انحطاط نظام الرق
٢٨	٣ - الاقطاعية
٣٢	انحطاط الاقطاعية
٣٧	٤ - الرأسمالية
٣٩	التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج
٤٣	خاتمة : أهمية الاقتصاد السياسي الماركسي

من الأزمة العامة للرأسمالية ، وفي ظروف تعدد واتساع التجارب الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية ، وتعاظم الثورات الشعبية التحررية في « منطقة العواصف الثورية » - آسيا وأفريقية وأمريكا اللاتينية . وتنضوي هذه التناقضات الى فئتين رئيسيتين مختلفتين من حيث طبيعتهما :

(١) التناقضات بين المضطهدين والمضطهدين ، بين الشعوب والطبقات الثورية من جهة ، وبين الطبقات الرجعية الحاكمة من الجهة الأخرى . (٢) التناقضات في وسط الشعب ، وفي صفوف الثورة ، وفي غضون المجتمع الاشتراكي .

★ ★ ★

الكتبة الاشتراكية

صدر منها :

- ١٢٥ ١ - الماركسية ولمايا علم اللغة - ستالين
- ٢٠٠ ٢ - القضايا الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي
ستالين
- ١٥٠ ٣ - المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية - ستالين
- ٢٥٠ ٤ - أسس اللينينية - ستالين
- ١٥٠ ٥ - حول مسائل اللينينية - ستالين
- ١٥٠ ٦ - البيان الشيوعي - ماركس وإنجلز
- ٢٥٠ ٧ - دور الأفكار التقدمية في تطور المجتمع - كونستانتينوف
- ٧٥ ٨ - الطبقة والامة - غليزرمين
- ١٢٥ ٩ - لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ - سيفال
- ١٠٠ ١٠ - اصلاح اجتماعي ام ثورة - روزا لوكسمبورغ
- ١٠٠ ١١ - حول تاريخ تطور الفلسفة - جياتوف
- ٦٠ ١٢ - الدكتاتورية الديمقراطية الشعبية - ماوتسي تونغ
- ٧٥ ١٣ - الوضع الراهن ومهمتنا - ماوتسي تونغ
- ١٤ - تقرير الى الدورة العامة الثالثة للجنة المركزية المنبثقة عن المؤتمر الوطني السابع للحزب الشيوعي الصيني - ماوتسي تونغ
- ٣٠٠ ١٥ - القضايا الاساسية للماركسية بليخانوف
- ٣٠٠ ١٦ - دور الطب في التاريخ - إنجلز
- ٢٥٠ ١٧ - لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية
ماركس وإنجلز

« اعلم أن اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهن
من المعاش . »

(عبد الرحمن خلدون)

« ان العلاقات الاجتماعية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقوى المنتجة .
وعندما يحصل الناس على قوى منتجة جديدة ، يغيرون أسلوبهم في الانتاج ،
وبتغييرهم أسلوب الانتاج ، أي بتغييرهم طرق كسب معيشتهم ، يغيرون كل
علاقاتهم الاجتماعية . فالطاحونة الهوائية تعطيك مجتمع السيد الاقطاعي ،
والطاحونة البخارية تعطيك مجتمع الرأسمالي الصناعي . » (كارل ماركس)
« ان الانتاج الاقتصادي ، والبناء الاجتماعي الذي ينشأ عنه
بالضرورة ، يؤلفان ، في كل عهد تاريخي ، أساس التاريخ السياسي والفكري
لهذا العهد ... وبالتالي ، فكل التاريخ ، منذ انحلال ملكية الارض المشاعية
البدائية ، هو تاريخ صراع بين الطبقات ، صراع بين طبقات مستقلة وطبقات
مستقلة ، بين طبقات مسودة وطبقات سائدة . »

(فريدريك انكلز)

احس ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر ، بتجربته السياسية
الواسعة وبفكره المبكر الثاقب ، بالموضوعية الاساسية في المادية
التاريخية . وقام ماركس وانكلز في القرن التاسع عشر ، بتأسيس نظرية
المادية التاريخية . وعلى ضوءها فان التاريخ لكي يغدو علما حقيقيا ، يجب
الا يقتصر على أعمال الملوك والحكام وقادة الجيوش ، بل يجب أن يهتم
قبل كل شيء ، بتاريخ منتجي الحوائج المادية ، تاريخ الجماهير الكادحة ،
تاريخ علاقات الانتاج بين المستغلين والمستغلين في كل عهد .
ان هذا الكتيب هو عرض موجز للمراحل الرئيسية في تاريخ
المجتمع البشري ، على ضوء نظرية المادية التاريخية .

النشر والتوزيع في الاقطار العربية

بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة ص.ب ٨٧٢٧
دمشق : شارع بورسعيد هاتف ١١١.٢٢

السعر ٢ ل.س